خلاصة محاضرة إطار المؤتمر

التي قدمها الأستاذ الدكتور

طه جابر العلواني

رئيس مؤتمر ورئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي

بعنوان

العلوم النقلية بين منهجية القرآن المعرفية وإشكاليات عصر التدوين

استهدفت المحاضرة تقديم إطار شامل للمؤتمر وقضاياه الرئيسية ومحاورة الأساسية والاشكاليات التي استهدف المؤتمر إثارتها ومعالجتها؛ ولذلك فقد تعرضت المحاضرة إلى جملة من القضايا المنهجية والمؤشرات الموضحة لقضايا هذا المؤتمر والمساعدة على فهم إشكاليته الكبرى وتفرعاتها وما انبثق عنها وترتب عليها.

ولذلك فقد جاءت في نقاط يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولا: افترضت المحاضرة أن هنا كنوعين من المعرفة لكل منهما منهجيته ووسائله وأدواته ومصادره: أولهما المعرفة الدينية وهي معرفة بدأ بتعليم الله لآدم الأسماء وتتابعت النبوات والرسالات في تكميل جوانبها حتى استوت على سوقها منهجية معرفية كاملة في القرآن الكريم قابلة لاستيعاب متطلبات الإنسان المعرفية في سائر عصوره وأزمنته وعلى اختلاف بيئاته وأنساقه الحضارية.

وذلك إذا قرئ القرآن العظيم بتلك المنهجية المعرفية القائمة على الجمع بين القرائتين: قراءة الوحي وقراءة الكون.

أما النوع الثاني من المعرفة، فهي المعرفة البشرية الوضعية التي توصل الإنسان إليها دون ان يعتمد على الوحي او يربطها بمنهاجيته، أو يلاحظ فيها الحضور الإلهي في المعرفة والطبيعة والإنسان. فهي تفترض أن الحياة تعتمد على طرفين لا ثالث لهما هي الكون أو الطبيعة والإنسان، وأي بعد آخر جاء به الدين لا تلتفت إليه.

ثانيا: بيّن المحاضر أن هذه المعرفة الوضعية التي حصرت العلاقة الكونية بين الإنسان والطبيعة، ونفت البعد الغيبي أو تجاهلته أصبحت بعد نهضة أوروبا وثوراتها المتتابعة التنويرية، ثم العقلية، ثم العلمية، هي المعرفة المهيمنة على العالم كله، ومنه العالم العربي والإسلامي.

وقد أورد المحاضر نماذج كثيرة ليبين كيف تأثر ملايين المسلمين بهذه المعرفة الوضعية ومعطياتها في الفكر والتصور والاعتقاد، إضافة إلى نظم الحياة وعلاقاتها.

وأشارت المحاضرة إلى أن ذلك كان له آثار البالغة في تهميش أو تجاهل المعرفة الدينية على وجه العموم في نظريتها ومصادرها، والأفهام البشرية لها وغير ذلك.

ثالثا: حاولت المحاضرة أن تفرق بين مصادر التنظير: الكتاب والسنة وبين ما سمته بالتراث وتوضح أن فكر المسلمين وتراثهم المتمثل في علوم النقل–سواء أكانت علوم وسائل أم علوم مقاصد– لم يستطع أن يواجه هذا التحدي وأن يحتويه ويستوعبه في وقت كان ذلك فيه ممكنا جدا لو تم الرجوع إلى القرآن العظيم بمنهجية ومعرفة وفهم متجدد وإدراك كامل لخصائص القرآن العظيم وقدراته المتنوعة، وفهم دقيق لمنهج رسول الله (ﷺ) المتمثل لمجمل ما أعطاه في حياته منذ لحظة نزول الوحي عليه حتى لحظة التحاقه بالرفيق الأعلى (صلى الله عليه وآله وسلم).

لكن العقل المسلم تجمد وتبنى وقلّد وكيّف نفسه وفقًا للمعارف النقلية التي دونت في عصر التدوين. وكان ذلك التبني قد أضر بالعقل المسلم وبعلاقته بمصدري تكوينه: القرآن العظيم، والسنة والسيرة ومنهجية رسول الله (ﷺ) في الربط بينه وبين الواقع دون إلغاء لاطلاقيته وقدراته المتجددة أو مصادرة عليه.

رابعا: أشارت المحاضرة إلى الصورة البشعة التي حاولت المعرفية الوضعية أن ترسمها في أذهان المسلمين عن الإسلام من خلا تراثهم، وذلك لتجعل من تلك الصورة جزءًا من وسائلها في تحقيق الاستلاب النهائي لهم، والقضاء على خصوصياتهم.

خامسا: واستعرضت المحاضرة كثيرًا من وجوه النقد التي وجهت لتراث عصر التدوين وللعلوم النقلية في مختلف العصور ومن علماء في أزمان مختلفة بدأ بالقرن الخامس الهجري حتى الآن. وربطت المحاضرة بأحكام بين عمليات النقد الموجهة للتراث النقلي وبين واقع الدراسات النقلية المعاصرة.

سادسا: ثم خرجت المحاضرة بعد ذلك إلى محاولة تقديم جملة كبيرة من الأسئلة لجعلها محاور تنبيه وتفكير حول كيفية إعادة النظر في سائر أركان العملية التعليمية للمعارف النقلية.

وبيّنت أن الخروج من هذا المأزق لا يمكن أن يتم بمحاولات تجريدية تقوم على أفكار المقاربة بين المنهجية المعرفية الإسلامية وبين المنهجية المعرفية الوضعية، وطرحت تساؤلا محوريا مفاده: هل القرآن الكريم مقيد فهمه وإدراك معانيه بشروط الوعي والفهم التاريخي العربي في عصر التدوين وبوسائله وأجهزته فقط؟ وهل على جميع أجيال المسلمين أن تعيش استهلاك ذلك الفهم وحده ووسائله دون محاولة منها لأن تعيد القراءة والفهم، أو أن الخطاب القرآني موجه للناس كافة إلى يوم القيامة، ولكل جيل الحق في إعادة القراءة وإعادة الفهم والتماس عطاء القرآن الكريم المتجدد المحيط بأية متغيرات نوعية للزمان والمكان.

سابعا: ولخصت المحاضرة بعد ذلك جملة من المداخل التي لا بد من إدراكها وفهمها، بالنسبة لعصرنا هذا لتجاوز أزماتنا المعرفية والفكرية والثقافية، وأن هذه المداخل إنما هي مداخل قرآنية تستجدي وعيها في فهم القرآن الكريم من ملاحظة خصائصه وملاحظة المنهج النبوي في التعامل مع تلك الخصائص.

وكان يلخصها ما يلي:

١-لا بد أن ندرك أن أزمة هذا النوع من ثقافتنا الموروثة هي أزمة منهجية، وليست ازمة في التفاصيل والجزئيات.

٢-أن المفترض في هذه المعارف أن تقوم على المنهج القرآني في الجمع بين القراءتين —قراءة الوحي وقراءة الكون- وهو المنهج الذي نزل به الروح المين أول ما نزل ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**) (**العلق:١**)

٣-أن هذه المنهجية المعرفية الدينية مستوعبة لتراث النبوّات كلها وممتدة عبر التاريخ البشري باتجاه عالمية الهدى ودين الحق، فأية معارف تتعارض مع هذه العالمية الممتدة لا يمكن ان تندرج في إطار هذه المنهجية.

٤-أن "للمنهجية المعرفية الدينية)، مقاصد شرعية تتياها، فأية معرفة لا تحقق هذه المقاصد أو تتغيّاها فإن هذه المنهجية ترفضها، فضلا عن المعرفة التي قد تضر بها.

٥-إنّ القرآن المجيد قد استهدف إيجاد إنسان التغيير الرسالي المعدّ في إطار التلاوة والتزكية ومعرفة العلم والحكمة، الواعي بذاته وبمهمتهن فأي معرفة ل اتفيد في إعداد هذا النموذج قد تندرج تحت العلم الذي لا ينفع، فإذا أضرت اندرجت تحت العلم الضار.

٦-أن القرآن المجيد قد استهدف بناء "أمة قطب" مخرجة للناس، قادرة على استقطابهم، مؤهلة للوقوف موقف الشهادة منهم.

٧-إن القرآن العظيم الذي يمثل المرجع المطلق لهذه المعارف خطاب عالمي يستوعب البشرية كلها ويتجاوز سائر أنواع الخطاب الحصري قوميًا أو جغرافيًا أو طائفيًا أو لاهوتيًا، فأية معارف لا تستوعب هذه الحقيقة لا يمكن أن يمثل القرآن العظيم مرجعيتها.

٨-إن الله (تعالى) قد أبدل البشرية عن الحاكمية الإلهية في بني إسرائيل بحاكمية هذا القرآن المحفوظ إلى الأبد يرجع الناس إليه فيجدون فيه القول الفصل.

٩-إنّ م نأهم خصائص الشرعة التي جاء القرآن المجيد بها وطبقها رسو الله (صلى الله عليه وآله وسلم) التخفيف والرحمة ووضع الإصر والأغلال ورفع الحرج، ولا بد لهذ الخصائص أن تبرز بوضوح في سائر دراساتنا الشرعية.

١٠-عن من خصائص هذه الشرعة أيضا أن منطلق التكليف فيها هو التشريف والهداية والتحرير للإنسان خلافا لمنطلق التكليف في شرائع سابقة وهو التشديد ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ..**﴾ **(النساء:١٦٠)** ولا بد من أنتعكس علومنا النقلية هذا بوضوح.

١١-إن القرآن الكريم هو المصدر الوحيد المنشئ للأحكام، وإن السنة النبوية هي المصدر الوحيد المبيّن لآياته على سبيل الإلزام ولا بد أن تعكس علومنا النقلية هذه الحقيقة.

١٢-إن الفترة التي عاشها رسو الله (ﷺ) وكل ما صدر عنه فيها من قول او فعل أو تقرير أو تصرف مهما كان نوعه جزءًا من منهجية كاملة لكيفية تنزيل قيم القرآن كلها على الواقع

وتمثل بمجموعها هداية لا بد أن تنعكس بوضوح في علومنا النقلية، ولا يحصر ذلك في مجال الأحكام وحدها.

١٣-إن "ختم النبوة" بمحمد رسول الله (ﷺ) يجعل البديل عن تتابع النبوات في الأمم السابقة هو التجديد والاجتهاد الدائمان المستمران لاستيعاب الواقع المتغير بقيم القرآن، ولابد أن ينعكس هذا الأمر في علومنا النقلية ودراساتنا الشرعية وأن يكون لمنهجية الاجتهاد والتجديد موقعهما في علومنا هذه وأن تكون الدراسات المنهجية حجر الزاوية في هذه العلوم.

١٤-إن تراثنا النقلي قد تفاعل مع ثقافات كثيرة وكان لذلك التفاعل جوانبه الإيجابية والسلبية ولا بد من تقديم مناهج للتعامل مع التراث تستطيع أن تعين على إبراز وتحديد ما هو إيجابي وما هو سلبي وأن يدخل ذلك في إطار هذه الدراسات وأن تكون مناهج عرض التراث على الكتاب والسنة، ونقده انطلاقا منهما جزءًا من عمليات التصحيح المطلوبة.

ثم ذكر المحاضر أن هذه العناصر ذاتها كل منها يفضي إلى الآخر، وكل منها يحتاج إلى شرح وتوضيح.

ثم أوضح المحاضر مدخل عالمية الإسلام وارتباطه الوثيق بعالمية الخطاب القرآني. ثم المداخل المنهاجية القرآنية لاستيعاب تراث النبوات والتي إذا وفقنا لفهمها ضمن إدراكنا لمنهجية القرآن المعرفية فإن ذلك سيكون إن شاء الله بداية إعادة التشكيل لعقولنا وحجر الزاوية في بناء منهجيتنا، ونقطة الانطلاق نحو عالميتنا المرتقبة.

إن عالمية الإسلام تبدأ من فهم خصائص الكتاب الكريم المتضمن لعالمية الخطاب، المستوعب والمتجاوز بذات الوقت لإشكالية كافة الأنساق الحضارية والمناهج المعرفية والإدراكية لا في الماضي فقط ولكن في الحاضر والمستقبل أيضا ولكافة البشرية إذا فهم على أنه المعادل للكون.

غير أننا لا ننتظر اكتمال هذا الجهد الضروري دفعة واحدة لنقول من هنا نبدأ، فخصائص العالمية ظاهرة في الكتاب الكريم وفي سيرورة التاريخ الإسلامي، وإن كانت لم تتحول إلى منهج بعد، وهي خصائص يشد بعضها بعضا، وتدل كل خاصية على الأخرى، وذلك إذا رتبت ذهنيا ومعرفيا على النحو التالي، وإذا فهمت هذه الخصائص بوضوح فلابد أن تفهم خصائص القرآن العظيم ذاتها، وأبرز هذه الخصائص وأهمها ما يلي:

١-ليكون الخطاب عالميًا كان لابد من ختم النبوة وذلك لتوحيد المرجعية، فلا تتعدد النبوات التالية، ويحدث النسخ والتعارض والاختلاف منها.

٢-ليكون الخطاب عالميًا كان لابد من تحرير القرآن من خصوصية بيئة النزول ولهذا أُعيد ترتيب مواقع آيات القرآن توقيفا على يدي رسول الله (ﷺ) قبل التحاقه بالرفيق الأعلى.

٣-ليكون الخطاب القرآني عالميًا كان لا بد من نسخ الشرائع ذات الخصوصيات الحصرية لشعوب وقبائل محددة وهي شرائع إصر وأغلال لتستدل بها شرائع القرآن التي تتفق مع حاجات المجتمعات العالمية كافة بحيث تحمل قابلية الشمول والعموم لتكون مشتركة وقابلة للتطبيق في كافة أرجاء العالم، وهي شرائع الحدود الدنيا القائمة على (التخفيف والرحمة) وضبط حركة الإنسان في دائرة الأمانة والاستخلاف والعمران والابتلاء.

٤-وليكون الخطاب عامليًا كان لا بد من ان تتضمن النصوص اللغوية المحدودة معاني إطلاقة تكتشف عبر اكتشاف منهجية القرآن المعرفية ضمن بنائيته الموحدة حين ننطلق من هذه المسلمات العقلية بوصفها (فرضيات) علمية موضوعية، تؤكد في ترابطها على عالمية الخطاب الإسلامي، سنكتشف أن قدرًا منها هو من البديهيات التي بين أيدينا مثل ختم النبوة وشرعة التخفيف والرحمة وحاكمية الكتاب الكريم المطلق في معانيه للبشرية كلها صيرورته مع الزمان والمكان.

ولابد ان تعكس معارفنا النقلية بوضوح هذه الخصائص والمزايا وتجعل منها مداخل منهاجية أساسية ظاهرة.

ثامنًا: ثم دعا المحاضر إلى استحياء المداخل، وذلك بتجديد المعرفة بالمداخل المنهاجية للخطاب القرآني والخطاب النبوي على تجديد وعينا بتراثنا وبناء معرفتنا المعاصرة وفقًا لها، وكانت أهم المداخل المشار أليها ما يلي:

١-إنه قد أشتمل على جملة من المداخل المنهاجية الهامة التي من خلالها صدّق ما سبقه وهيمن عليه وعلى ما لحقه وتضمنت بشكل موسع ومكثف ومفصّل معالجة نقدية لكل تراث النبيين فاسترجع ذلك التراث واستخلصه من تحريفات المبطلين وتخيلات وأوهام المفسرين لذلك التراث وطهرها من التزييف وأعاد تقديمها صادقة من داخل مشكاة التوحيد، ونفى عنها كل ما لحقها من تأثير العقليات الوثنية والأحيائية والحلولية والتجسيدية، كما أوضح دلالة كل نبوة من تلك النبوات، والجوانب المميزة في كل منها لذلك وصف رسول الله بأنه "الذي جاء بالصدق وصدق به".

وقال تعالى: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾ **(المائدة:١٥)**.

وأن مدخل التصديق قد وضح الفرق بين حقائق تراث النبوات والأباطيل التي أضيفت إليه، كذلك الاسقاطات البشرية الأيدولوجية على ذلك التراث، وذلك ما يجعله مصدرا لذكر الصادق الموثوق للبشرية كلها.

٢-خاصية الهيمنة: فهو المهيمن على كل ما سواه ولا يهيمن عليه ما عداه فهو مسترجع للماضي بهيمنة، موجهّه إلى حاضر التنزيل في وقته لكنه هُيء لاستيعاب المستقبل بإطلاقيته اعجازه وتصديقه وهيمنته، وإن أية محاولة معرفية تتم في إطار غفلة عن هذه الخصائص القرآنية أن تؤدي إلى اختراق عالمية المعرفة الوضعية.

٣-إن القرآن العظيم يحمل في مبناه ومعناه "وحدة منهجية كاملة" لا تقتصر على ما ذكرناه، وعنصر هيمنته واستمراريتها لا يكمن في نصوصه وحدها ولكن في فهم هذه النصوص في ضوء "المنهج القرآني"، ذاته والمطلوب منا هو التفاعل الدائم العميق مع القرآن لنكتشف

منهجيته كما نكتشف المنهج والسنن والقوانين في الحركة الكونية بحثا عن النظام العام للظواهر الكونية.

والبحث في منهجية القرآن ضمن سور وآياته التي تبدو مجزأة (أجزاء) ومتعددة سورًا، ومتنوعة آيات، هو الذي سيمنحنا المنهجية المعرفية القرآنية المحيطة المهيمنة، وهذه المنهجية بين القرائتين هي التي ستفتح لنا طريق التجديد والوسطية لنشق طريقنا نحو عالمية الإسلام المرتقبة وظهور الهدى ودين الحق.

٤-أن هذا القرآن كلام الله (تعالى) معجز متحدي به لو اجتمعت الجن والإنس على ان يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وأنه تبيان لكل شيء، وأن الله تعالى لم يفرط فيه من شيء، وأنه معادل للكون قابل لاستيعابه، وتقديم فهم له وتفسيره، وقابل لهداية الإنسان وتقديم كل ما تحتاجه مهمة الاستخلاف من علوم ومعارف.

وإذا كان للكون سنن حاكمة وقوانين ضابطة يمثل المنهج العلمي الضابط لها والكاشف عن علاقتها وبدون ذلك لا يفهم الكون، فإن للقرآن العظيم سننا تربط بين آياته وكلماته وسوره لا بد من فهمها تحليلًا وفي إطار بنائيته الكلية لا تجزئة، وان إنماء علم المناسبات والتناسب قد يساعد على الكشف مع أدوات التحليل والفهم الخرى وفق اللغة ووفق الواقع عن هذه المنهاجية.

٥-إنّ هذا القرآن بحكم كونه كلام الله هو نص مطلق لا يستوعبه زمان أو مكان بل هو متجاوز لذلك كله، وهو خارج عن دوائر ثنائيات القديم والجديد، والتراث والعصر وغيرها، فهو كلام الله المستوعب لحركة التاريخ، المتعالي على قدرات المخلوقين لا يحيط به فهم بشر ولا تحده تفسيراتهم، ولا تحصره أفهامهم، يتحدى عقولهم ويدفعها إلى تدبره، وإعمال قدراتها فيه، لكنه يعجزها بقدرته على استيعاب الإنسان وأطواره، والكون وصيرورته، والتاريخ ومراحله.

وإنجازه وحفظه بلفظه ليبقى مرجع البشرية حتى يوم الدين يغنيها عن أية مرجعية أخرى.

٦-إن إعادة تشكيل عقولنا وبناء ثقافتنا لا يمكن أن يتم بتأويلات وتفسيرات جزئية، وباتخاذ النصوص شواهد، بل بإدراك أن القرآن الثابت المعجز الذي لا يتغير يحمل في ثناياه ما يحيط بمختلف أشكال الوعي الإنساني لا بمفهوم باطني، وإنما بالمفهوم الذي يشير إليه قوله (تعالى): ﴿ **وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**﴾ **(ص:٨٨)** وقوله (تعالى) ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ..**﴾**(فصلت:٥٣)**

٧-إن هناك كثيرا من القضايا المتعلقة بالتراث التفسيري والتأويلي وعلوم القرآن قد اشتملت على اسقاطات لا تتناسب وإطلاقيه القرآن العظيم ومن المهم أن تنهض الهمم لمراجعتها ودراستها واخضاعها للنقد والتحليل وتحرير الأفهام منها.

٨-إن هناك كثيرًا من القضايا التي أدرجت في علوم القرآن في عصر التدوين، مثل قضايا التشابه والنسخ ونحوها تحتاج إلى إعادة دراسة وتمحيص لتحرير الفهم الإسلامي للقرآن المجيد من آثارها.

٩-إنّ هناك مشكلات كثيرة قد أثيرت حول السنة النبوية المطهرة قديما وحديثا ولا يمكن ان تتم معالجة هذه الإشكاليات إلا باكتشاف المنهج الناظم الضابط لقضايا السنة كمنهج تطبيق في الواقع والدراسات الحالية لا تستطيع امدادنا بهذا المنهج الضابط ولابد أن تنهض الهمم لإجراء البحوث والدراسات المنهجية لمعالجة هذا الإشكالات.

١٠-أنه من الواضح جدًا أن تحول القرآن باتجاه العالمية ضمن واقع تاريخي اقتصادي واجتماعي وثقافي مغاير جذريًا لأوضاع العالمية الأولى يعني بالدرجة الأولى إيجاد تفاعل بين القرآن وهذه المتغيرات. فما هو الأسلوب الذي يتبع في ضبط هذا التفاعل بحيث لا تخضع النصوص لتأويل عصري مفتعل يقفز —مسايرة للعصر-إلى خارج القرآن. وكيف يمكن النظر إلى هذه المتغيرات الجذرية في الزمان والمكان من بعد انقطاع الوحي والرسالة؟

فالذين يتوجهون بالعصرنة إلى القرآن إنما يطبقون أفكارهم لا أفكار القرآن عن التفاعل مع التغيير، أما القرآن فإنه يضع امامنا أسسا ثابتة للتعامل معه في إطار متغيرات العصر والتاريخ.

علما بأن القرآن يتوجه اليوم إلى عالمية جديدة لكل البشر ليظهره الله على الدين كله ضمن عالمية شاملة، إن من شروط أداء القرآن لهذه المهمة العالمية أن يأتي مستوعبا لمقوماتها في تكون إنسان العالم الجديد. من الأمثلة على ذلك أن كل (مشتغل) بالدعوة الإسلامية خارج الإطار الجغرافي التقليدي للإسلام سرعان ما تواجهه مشكلات تراثية يلجأ إلى كل أنواع المبررات المنطقية ليؤكد على صحتها أو سلامة منطلقها دفاعا عن التراث أكثر من كونه دفاعا عن القرآن.

ولو كان المنهج القرآنين والمنهج النبوي في فهمه وتطبيقه سائدين في الوعي المعاصر لما دعت الحاجة إلى كثير من الاعتذارات والتأويلات.

لقد كان لغيات المنهجية في فهم القرآن وتفسيره ضرر بالغ في العقل المسلم، فلم يأخذ بتفسير الجزء من خلال الكل والنظر في الآيات المقررة بردها ناظم إلى كلي عام مما أثر في المواقف المتناقضة التي ظهرت ضمن مدارس الفكر الإسلامي ليس فيما بينهما فقط ولكن داخلها أيضا. فالأشعري مد يتناقض مع الأشعري والمعتزلي مع المعتزلي مع وحدة المصدر القرآني الذي يستمدون منه ولا يمكن ان يكون القرآن سببا في هذا بل سببه أنهم وقعوا فيأسر الكثرة دون تبين الوحدة المنهجية في تكوينه العام. لذلك جاءت أقوالهم، وأراؤهم حول القدرة الإلهية والعجز البشري ومقام العقل لتعكس غياب هذه الوحدة. بل عن هذه النقطة بالذات تحمل تمييزًا واضحًا بين القرآن في منهجه الواحد والفكر الإسلامي في متناقضاته بحيث لا يصبح الثاني ترجمة موضوعية للأول.

ومن هذه النقطة تتولد نقطة هامة جدا في نقدنا للفكر الإسلامي فنتيجة لغياب الاتجاه نحو المنهجية والاعتماد على النص في جزئيته وكثرته نجد أن كل المفكرين الإسلاميين يأخذون ببدايات قرآنية ثم يولدون من خلال مناقشاتهم العقلية والفلسفية ورؤاهم للأمور كأنما تقف كل آية في القرآن مستقلة عن كلية الكتاب والكيفية لا لتنشئ فكرًا وعلمًا، بل لتكون شاهدا للفكر البشري القاصر. ثم نبه المحاضر إلى الأخطاء الشائعة التي نجمت عن غياب

هذه الخصائص عن الأذهان، وهذا الخطأ جعل من الإسلام قسيما لما عُرف في حوارات الأديان "بالأديان الابراهيمية" بل وقسيما غير مكافئ، فقيل ان الأديان الابراهيمية ثلاثة:

أولها اليهودية، وثانيها النصرانية، وثالثها الإسلام.

والذي أود تأكيده هنا، هو أن الإسلام ليس اسما لدين بدء برسالة مُحَمَّد –عليه الصلاة والسلام– بل إنه اسم لدين الله كله الذي ينظر إلى إبراهيم على أنه مقدمة له، وإلى مُحَمَّد (ﷺ) إلى أنه النبي الخاتم ليشكل الأنبياء والرسل أمة واحدة.

ولذلك فإن القرآن الكريم قد تجاوز كل ما بين مُحَمَّد (ﷺ) وغبراهيم لينتسب إليه، فقال (جلّ شانه)﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾(**النساء:١٢٥**)

وقال (جلّ شانه): ﴿.. **هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾(**الحج:٧٨**).

وقد شدد القرآن الكريم على وجوب اتباع ملة إبراهيم، فقال: ﴿ **قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (**آل عمران:٩٥**).

وأكد على إمامه إبراهيم عليه السلام للأنبياء، فقال (جل شأنه): ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ (**البقرة:١٢٤**).

ويؤكد القرآن العظيم الاتصال المباشر المتجاوز بين رسول الله (ﷺ) وأبيه إبراهيم اعتبر بعثة مُحَمَّد (ﷺ) منه نعمة ورحمة للعالمين اقترنت بالاستجابة لدعاء إبراهيم ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ**

الحَكِيمُ﴾ (البقرة:١٢٩)، وقال (جلّ شأنه): ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران:١٦٤)**.

إن التأكيد على الأصل الابراهيمي المتصل مباشرة برسالة مُحَمَّد (ﷺ) يجعل الإسلام الذي جاءت به أمة الأنبياء واحدًا تمثله وتجسده بشكله الكامل المتصل المتجاوز ملة إبراهيم التي مثل القرآن العظيم وحده خصائصها وصفاتها وهذا سوف ينسف مثيرًا من المسلمات المتداولة في بعض معارفنا النقلية حول "شرع من قبلنا" وعلاقة المسيحية واليهودية بالإسلام، وبإبراهيم عليه السلام، فالقرآن الكريم ينفي أية صلة بين اليهودية والنصرانية وإبراهيم ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران:٦٧–٦٨)** وهذا يجعل رسالة مُحَمَّد (ﷺ) دون مرور أو توقف عند اليهودية أو النصرانية، فهو ينفي صلة اليهودية والنصرانية بالإبراهيمية، وهذا يتجاوز الديانات التاريخية المحلية والإقليمية والقومية ليعزز الحنفية الشاملة ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء:١٢٥)**.

فالإسلام دين العالمية وليس قسيما لليهودية القومية ولا النصرانية، فكلا الديانتين ديانتان قوميتان ارتبطتا ببني إسرائيل وحدهم وقيدتهما بهما وبزمانهم.

أما العالمية فهي خاصية الإسلام الذي يستطيع الاستجابة لخصائص أي واقع ضمن متغيرات الزمان والمكان. ولتأكيد هذه الخاصية في القرآن قال الله (تعالى):﴿ **وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (فاطر:٣١)**.

وهذه الآية تأكيد على مدخلي التصديق والهيمنة على الماضي ثم تبعه قوله (تعالى): ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (فاطر:٣٢)**

ثم أكد المحاضر على أن الله قد جعل من القرآن بديلا كافيا عن ابتعاث الأنبياء وهاديا للبشرية، وإذا كان اعجاز القرآن في عصر التنزيل قد قام على المبنى اللفظي فإن المعنى المنهجي هو حجة القرآن المعاصرة على أهل الحضارات العلمية، والمعرفة الوضعية، فالقرآن الكريم يحمل المنهج الكامل للبشرية الذي يجعله وحده القادر على قيادتها نحو الهدى ودين الحق، إنه المنهج الميسر الذي يرقى على كل المناهج وأن علومنا النقلية المعاصرة يجب أن تعكس هذا المنهج وتشتمل عليه وتقوم على إبرازه وهداية البشر به: ﴿... **قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ **(المائدة:١٥-١٦)**.

وخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم.

﴿ **إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾ **(النمل:٩١-٩٢)**